نظام ولاية العهد في العصر الأموي ما بين السلبية والايجابية

د. مريم محمد عبدالله جبوده
كلية الآداب بالزاوية– جامعة الزاوية

مقدمة:

يعد نظام ولاية العهد من النظم السياسية التي تم اقرارها في الدولة العربية الإسلامية زمن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. إذ كان نظام الحكم السياسي قبل ذلك قائما على مبدأ الشورى، منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لم يستخلف أحدا وترك الأمر شورى، وتبعه في ذلك الخلفاء الراشدين فكان الاختيار يتم عن طريق الشورى والبيعة الحرة، ولم يفكر أحد من الخلفاء في توريث الخلافة لأحد من أبنائه أو أقاربه . الى أن وصل معاوية بن أبي سفيان الى الخلافة، وسنّ سنّة جديدة ونهجا لم يكن متبعا من قبل وهو نظام التوريث في الحكم، عندما قام بتعيين ابنه يزيد وليا للعهد وحصر السلطة في الأسرة الأموية.

وقد كانت ولاية العهد من أكثر المسائل السياسية في العصر الأموي التي أثارت جدلا واسعا، وأفرزت نتائج ومستجدات على المجتمع الإسلامي، ومن أكثر الأمور التي وجه لمعاوية النقد من أجلها. فكيف أقدم معاوية على اتخاذ هذه الخطوة ؟وما الظروف والعوامل التي ساعدته على ذلك ؟ وكيف تفاوت نظام ولاية العهد بين النظرية والتطبيق الواقعي ؟ وهل كان لنظام ولاية العهد آثار ايجابية ؟ أم ان سلبياتها غلبت على المجتمع الإسلامي حينئذ من خلال وجهات نظر المؤرخين مابين مؤيد ومعارض ؟.

سنحاول من خلال هذا البحث المتواضع الإجابة على تلك التساؤلات .

أولا – فلسفة نظام ولاية العهد:

الولاية في اللغة هي النصرة والإمارة والنقابة والرئاسة، فيقال هم على ولاية أي مجتمعون في النصرة [1] .والعهد لغة هو كل ما عوهد الله عليه، وكل مابين العباد من العهود والمواثيق[2]

ويقال ولي العهد، لأنه ولي الميثاق الذي يؤخذ على من بايع الخليفة . وولاية العهد في الاصطلاح هي أن يعهد الخليفة السابق إلى شخص ممن تتوفر فيه شروط الخلافة أن يلي العهد من بعده[3]. هذا وقد وردت كلمتي الولاية والعهد في القرآن الكريم في عدة مواضع منها:

قال تعالى :"رب قد آتيتني في الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين"[4].

قال تعالى :"يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض"[5].

وفي قوله تعالى :"وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا"[6]. أي كل ما عوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق .

وفي قوله عز وجلً "والذين هم لأمنتهم وعهدهم راعون"[7] أي يحفظون عقودهم التي عاقدوا الناس عليها . وكل ما تقدم يعني النصرة والولاء والعهد والميثاق .

وتعد وظيفة ولاية العهد من النظم السياسية للحضارة العربية الإسلامية، وقد يجعلها البعض مرادفة لما يعرف بالاستخلاف وهي في اللغة مصدر خلف، واستخلف فلانا من فلان: جعله مكانه .وخلف فلان فلانا إذا كان خليفته .يقال خلفه في قومه خلافة[8]. وفي السنة النبوية وردت كلمة الاستخلاف بمعنى النيابة، فعن أنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم استخلف ابن مكتوم على المدينة مرتين[9]. حيث ان الرسول صلى الله عليه وسلم أناب عنه ابن مكتوم فترتين من فترات خروجه للغزو أو غيره.

وقبل الخوض في مسألة المسار التاريخي لولاية العهد، يجب توضيح أساس نشأة هذه الوظيفة . فلم يرد في الكتاب أو السنة نص صريح يبين شكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم إلا تلك الأوامر العامة التي تتناول الخلافة وغيرها، مثل وصف المسلمين بقوله :"وأمرهم شورى بينهم".[10] ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أوصى بالخلافة لأحد من بعده، كما لم يرد عنه بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض النصائح التي تبعد عن الاختلاف والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تكل الأمر للمسلمين يختارون من نظم الحكم ما يلائم أحوالهم.

ومن طرائق الانتخاب السياسي في العصر الراشدي :

1- طريقة الشورى وهي طريقة الانتخاب الاستشارية، وقد كانت في انتخاب أبي بكر الصديق في سقيفة بني ساعدة عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فتم استخلاف أبي بكر بطريقة ديمقراطية على نحو ما كان مألوفا لدى قبائل العرب في الجاهلية، ذلك النظام الذي يقضي بأن تكون السن والفضائل أساسا لاختيار شيخ القبيلة [11]، وفي ذلك يقول توماس آرنولد في كتابه الخلافة :[12]"قد لوحظ في انتخاب أبي بكر الصديق ما يلاحظ في انتخاب شيخ القبيلة العربية، لأنه انتخاب يتفق والروح العربية".وبهذه البيعة أكد أبوبكر قضاء الإسلام على التحكم الفردي في توريث العروش، كما كان متبعا في الكسروية والقيصرية.

2- طريقة البيعة القائمة على الشورى .وهي طريقة العهد التي يعهد فيها الخليفة الموجود الى شخص آخر بعده، وكانت في بيعة الخليفة عمر بن الخطاب، فلما مرض أبوبكر مرض الموت خشى إن هو قبض ولم يعهد بالخلافة إلى أحد يجمع شتات المسلمين ويوحد كلمتهم، عاد الاختلاف على الخلافة بين المسلمين سيرته الأولى، فيتمكن منهم العدو ؛فرأى ببعد نظره وثاقب رأيه أن يحتاط لهذا الأمر، تحاشيا لانقسام المسلمون بعضهم عن بعض ويقتتلون، ويصبحون أشد خطرا على أنفسهم من أهل الردة[13].فلما أحس أبوبكر بدنو أجله عقد لعمر بن الخطاب عقد الخلافة من بعده، فيروي الطبري[14] عن ابن سعد أنه لما أراد استخلاف عمر من بعده، دعا عبد الرحمن بن عوف وسأله عن عمر، فقال عبد الرحمن بن عوف :"يا خليفة رسول الله، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة " .ثم دعا عثمان بن عفان وسأله فأثنى عليه .فأملاه أبوبكر كتاب عهده لعمر، وهذا جزء من نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم :هذا ما عهد أبوبكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر. إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب .فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه. وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب . والخير أردت لكل امرئ ما اكتسب "[15].فكان اذا استخلاف ابي بكر لعمر بناءا على مشاورة أهل الرأي من كبار رجال المسلمين آنذاك والهدف هو اختيار الأصلح ليقوم بشؤون المسلمين على أكمل وجه .

3- الطريقة الثالثة وهي طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود، وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان ؛فحين طعن عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة، خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة، فيتنازعون ويختلفون وقبيل وفاته رشح عمر ستة أنفار من الصحابة ليكون أحدهم خليفة على المسلمين من بعده وهم :علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف .وعرفوا بأهل الشورى، وأمر ابنه عبدالله بأن يكون مع الأكثرية اذا اختلف القوم، ومع الحزب الذي يكون فيه عبد الرحمن اذا تساوى الطرفين، وانتهى رأي الشورى الى اختيار عثمان بن عفان [16].ولكن منذ ذلك الحين – تولى عثمان الخلافة- ظهرت بوادر الانقسام بين المسلمين إلى أمويين وهاشميين أو علويين، والتي انتهت بالفتنة الكبرى التي راح ضحيتها الخليفة عثمان بن عفان، واجتمع أمر المسلمين على اختيار علي بن أبي طالب المقدم في الهاشميين أو العلويين وبويع بالخلافة، والذي ما لبث أن واجهته المشاكل التي تمثلت في مطالبة بني أمية بدم عثمان وعلى رأسهم معاوية بن سفيان[17].

ومن الناحية النظرية يقول الماوردي[18] فيما يخص ولاية العهد :"وإذا عهد الإمام بالخلافة إلى من يصح العهد إليه من الشروط المعتبرة فيه كان العهد موقوفا على قبول المولى .واختلف في زمان قبوله، فقيل بعد موت المولي في الوقت الذي يصح فيه نظر المولّى ؛وقيل – وهو الأصح- انه ما بين عهد المولي وموته لتنتقل عنه الإمامة إلى المولّى مستقرة بالقبول المتقدم".

وتجدر الإشارة إلى أن النظم في الحضارة العربية الإسلامية بشكل عام قد تباينت بين النظرية والتطبيق، ولذلك يجب علينا كدارسين لموضوع النظم السياسية مراعاة هذا الجانب، أي مراعاة المسافة بين ولاية العهد كأفكار تنظيمية نظرية لاشك انها تحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وتستند في إطارها النظري إلى المنهج الإلهي الصالح لكل زمان ومكان. كما ورد في قوله تعالى :"وأمرهم شورى بينهم"[19] أما في الإطار العملي المتعلق بالتطبيق على أرض الواقع فنجد من خلال استقراء التاريخ الإسلامي أن هذا التطبيق يختلف من زمان إلى آخر ومن مكان إلى آخر [20]وهذا بلا شك يقودنا إلى التساؤل الآتي :هل كانت

الرؤية لنظام الحكم الإسلامي فيما يتعلق بالخلافة والشورى مثالية من حيث الوجهة النظرية إلى حد الفشل في تطبيقها على أرض الواقع؟ وما مدى حدة الصراع السياسي على السلطة عندما انحرف مسار الشورى في نظام الحكم الإسلامي إلى مسار الحكم الوراثي ؟.

ثانياً– اشكالية السلطة في العصر الأموي وإقرار مبدأ ولاية العهد :

انتقلت السلطة للأمويين بعد أن استلم معاوية بن أبي سفيان مقاليد الحكم في الدولة الإسلامية عام 41هـ/661م بتنازل الحسن بن علي عن الخلافة، واقتضى النظام السياسي الجديد الذي مثله معاوية أن يكون الخليفة رجلا ذا مرونة، لا يتقيد بالتقاليد الماضية تقيدا تاما، بل يأخذ من تلك التقاليد ما يناسب العصر وربما الظرف الذي وجد فيه(*) ويترك ما عداها .وكان معاوية هو ذلك الرجل الذي يستطيع أن يمثل ذلك العصر، لما أوتي من سعة الصدر والدهاء والقدرة السياسية .ويبدو أن تلك الصفات قد ساهمت إلى حد كبير لأن يكون معاوية رجل الدولة الأول وتؤهله لهذا المنصب الخطير. ويسوق لنا ابن طباطبا في صفات معاوية :"وأما معاوية رضي الله عنه فكان عاقلا في دنياه لبيبا عالما حليما، ملكا قويا جيد السياسة، حسن التدبير لأمور الدنيا، عاقلا حكيما فصيحا بليغا، يحلم في موضع الحلم، ويشتد في موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه .وكان كريما باذلا للمال محبا للرياسة شغوفا بها....."[21]. وبعد أن استقامت الأمور في الدولة الأموية وأخذت نصيبها من الاستقرار، بدأ معاوية يفكر في مصير الدولة بعد غيابه .خاصة وان التقاليد التي تبناها الخليفة الأموي في سياسته للدولة لا ريب في أنها ستفرز في النهاية تقليدا وراثيا في الحكم، إلا أن خطوة مثل هذه لن يكن من السهل تنفيذها .خاصة بعد مراحل الصراع السياسي المقنع والمكشوف حول الخلافة، منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وحتى عهده الذي أقام صرحه بالقوة وحد السيف وبالوسائل المتعارضة مع الأعراف السائدة آنذاك[22].

ولذلك كله وللحفاظ على النظام السياسي الذي أسسه معاوية لدولته الأموية، من خلال شخصيته المتميزة والتي جمعت في يدها كل أطراف السلطة، وانطبعت بصماتها على مظاهر الحياة السياسية فيها . ولملء الفراغ السياسي الذي سوف ينتج بعد تواريه، قرر معاوية تعيين ابنه يزيد وليا للعهد ليكون خليفته في الحكم،

غير أن مسألة اقناع الناس بقبول مبدأ الوراثة في الحكم، ليس بالأمر السهل هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن يزيد لم يكن الرجل المناسب لملئ الفراغ السياسي بعد أبيه معاوية، لذلك استعمل معاوية في أخذ البيعة لابنه يزيد كل أساليب الحيل والدهاء، ذلك لأن المشكلة حسب رأيه لها وجهان .الأول هو اقناع الناس بقبول مبدأ الوراثة، خاصة وأن كبار المعارضين من أبناء الصحابة – والذين يعتبرون أنفسهم الأحق بالخلافة – متواجدين ان لم نقل متربصين في الحجاز والثاني، أن يزيدا لم يكن الشخص المناسب لملئ مثل هذا الفراغ السياسي بعد غياب معاوية . ولذلك عمل الخليفة الأموي جاهدا وقبل الإعلان الرسمي لهذا الأمر، على تهيئة ابنه يزيد للحكم عن طريق اسناد بعض الأدوار المهمة اليه، وإضفاء شيء من الهالة على شخصيته.[23] فأخذ يحمله على حياة الجد والحزم والإقلاع عن حياة الترف والنعومة، ليؤهل نفسه للمنصب الذي ينتظره،

كما أسند اليه قيادة الجيش الذي أرسله لغزو القسطنطينية سنة 49هـ /669م وكان تحت إمرته في هذا الجيش كلا من ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري[24]. وبدأ معاوية بإرسال الوفود الى الأمصار والكتابة الى عماله بالأقاليم لعقد البيعة ليزيد، بل أن بعضهم أشتري بالمال ومن أشهر عماله الذين تولوا الدعاية له في الأمصار المغيرة بن شعبة في الكوفة وزياد بن أبيه في البصرة .وكان معاوية يأخذ بنفسه بيعة يزيد من وفود الأمصار[25].

أما اقليم الحجاز فقد حمل زعمائه من أبناء الصحابة لواء المعارضة لتلك البيعة، فرأى معاوية أن يخرج بنفسه لأخذ البيعة، وهناك في المدينة المنورة أولا ثم في مكة ثانيا جرت مشادة بينه وبين زعماء قريش الحسين بن علي، عبدالله بن العباس، عبدالله بن الزبير، عبدالله بن عمر، عبد الرحمن بن أبي بكر كان مفادها رفض هؤلاء بيعة يزيد بن معاوية .اذ قال له ابن الزبير :"نخيرك بين ثلاث خصال .قال اعرضهن .قال: تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو كما صنع أبوبكر، أو كما صنع عمر .قال معاوية :ما صنعوا ؟ قال :قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر ..قال ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف . قالوا: صدقت، فاصنع كما صنع أبوبكر، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع

كما صنع عمر، جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه .قال معاوية :هل عندك غير هذا ؟ قال :لا .فقال معاوية :فأقسم بالله، لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم، فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة تصديق أو تكذيب، فليضرباه بسيفهما .ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال :هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لايبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله .فبايع الناس ....."[26] .

ثالثاً– نظام ولاية العهد بين السلبية والإيجابية:

لقد أثارت ظاهرة التوريث في الحكم التي سنها معاوية بن أبي سفيان جدلا واسعا سواء بين المؤرخين القدامى أو بين الباحثين المحدثين ما بين مؤيد ومعارض، ويعد ابن خلدون من أبرز المؤرخين الذين دافعوا عن صنيع معاوية في مسألة نظام الحكم الوراثي وسوغ مبادرته تلك حيث قال :"والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بني أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن معاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجل من ذلك، وعدالتهم مانعة منه ..ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير وندور المخالف معروف"[27].

وبالإضافة إلى ذلك يرى ابن خلدون أن فكرة ولاية العهد لم تكن بعيدة عن الإسلام من الناحية النظرية، فهذا أمر قد عرف من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده، فيقول: "إذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر، بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر رضي الله عنه"[28]

ويتفق الدكتور عبد الشافي عبد اللطيف في كتابه العالم الإسلامي في العصر الأموي مع رأي ابن خلدون، في قضية توريث معاوية الخلافة لابنه يزيد .ويرى أن معاوية وبعد التجارب التي رآها من اختلاف المسلمين حول الخلافة وجد أن المصلحة تقتضي العهد لأحد بعده بالخلافة لاستقرار الأمور ومنع الخلاف، ورأى أنه لو عهد لأحد من غير بني أمية لحدث ما كان يخشاه من الخلاف، لأنهم لن يقبلوا أن تخرج الخلافة منهم .ويضيف قائلا أن هذه أيضا حجة ابن خلدون في تبرير عمل معاوية، وهي حجة قوية لأنها واقعية، وتؤيدها الوقائع والحوادث اللاحقة، وعلى سبيل المثال عندما توفي يزيد بن معاوية، وكان قد عهد لأبنه معاوية (الثاني) وكان ضعيفا عن حمل أعباء الخلافة، فأعلن ذلك ورد الأمر الى الأمة، فماذا حدث ؟ انفجرت الفتنة الثانية عندما أخذ عبدالله بن الزبير البيعة لنفسه في مكة، وليس هذا فحسب بل بايعته الحجاز ومصر والعراق وبعض أقاليم الشام، ورغم كل ذلك لم يتم له الأمر في النهاية، وربما السبب في ذلك لا يعود فقط لعصبة وقوة بني أمية، بل لأن معهم بالفعل كتلة كبيرة تؤيدهم، وتشد أزرهم في اقليم الشام، لاسيما قبائل اليمن في الشام وفي مقدمتهم قبيلة كلب –أخوال يزيد بن معاوية – الذين كانوا قلبا وقالبا مع بني أمية وهم الذين يرجحون كفتهم في كل صراع ينشب حول الخلافة .هذا بالإضافة الى ما حدث من وقائع تاريخية فيما بعد، تؤيد الى حد كبير وجهة نظر ابن خلدون في تأييد نظام وراثة الحكم أو ولاية العهد الذي أقره معاوية، وهنا نقصد قصة الخليفة عمر بن عبد العزيز وولاية يزيد بن عبد الملك العهد من بعده، رغم ان عديد المؤشرات تشير الى عدم صلاحية يزيد للخلافة[*] ولكن عمر بن عبد العزيز لم يستطع أن يخلع يزيد من ولاية العهد ويضع بدله واحدا ممن كان يفكر فيهم مثل سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب أو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وذلك لمعارضة بني أمية لهما. فخشي الخليفة عمر بن عبد العزيز من حدوث الفتنة، فأبقى يزيد وليا للعهد رغم علمه بعدم صلاحيته تقديرا للواقع[29].

بينما يرى فريق من المؤرخين أن بيعة معاوية لابنه يزيد، خروج عن التقاليد المتبعة زمن الخلفاء الراشدين، اذ أبطل طريقة الانتخاب والشورى وجعلها وراثية بعد أن كان الأمر شورى، ويروي ابن الأثير عن زعماء الحجاز من أبناء الصحابة أنهم بعد أن أخذ منهم معاوية البيعة بحد السيف قد لقيهم بعض الناس فقالوا لهم :زعمتم أنكم لا تبايعون، فلم

رضيتم وأعطيتم وبايعتم ؟ قالوا :والله ما فعلنا .فقالوا :ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟قالوا كادنا وخفنا القتل "[30].ويؤيد الجاحظ هذا الرأي فيقول في ذلك :"إن معاوية غير سنة السلف الصالح وتشبه بملوك الفرس والبيزنطيين " وقال :"إنه حول الخلافة إلى ملك كسروي وغصب قيصري"[31].

ويتفق الدكتور فاروق فوزي مع الرأي المعارض والرافض لمسألة نظام الحكم الوراثي التي سنها معاوية من خلال بيعته لابنه يزيد، ويوجه انتقادا واضحا وصريحا فيقول:" إن بدعة معاوية كلفت الأسرة الأموية والدولة والمجتمع كثيرا، وسنّت سنّة سيئة في نظام الحكم في الدولة الإسلامية سارت عليها الدول الإسلامية بعد ذلك . إن التبريرات التي يسوقها بعض الباحثين من أن الوراثة وسيلة لبقاء السلطة بيد الأسرة الأموية وإجراء لمنع الفتنة وتوحيد الكلمة ، هي تبريرات تتسم بالحوار الفكري ولا تستقيم مع المنطق التاريخي " ويوضح ذلك قائلا أن تعيين يزيد لم يقض على الفتنة، والتي سرعان ما انتشرت نيرانها بعد وفاة يزيد .ويقول ايضا أن عدم الاكتراث برأي جمهور الأمة وزعمائها في ولايات الدولة يعد إهانة لكرامات الناس وازدراء لآرائهم [32].

ومع ما يوجد في جميع وجهات النظر المختلفة في نظام ولاية العهد الذي أقره معاوية في الدولة الأموية، ما بين مؤيد ومعارض، وبين سلبي وإيجابي من تبرير منطقي، إلا أن الظروف التاريخية التي تمر بها الدولة الأموية، وذلك الإرث المتراكم من الخلافات السياسية – والتي استطاع معاوية بحنكته وذكائه النادر احتوائها واستيعابها في حياته وما لبثت أن ظهرت على السطح بعد غيابه –، كان لها الدور البارز في تغيير مجرى الأحداث التاريخية وانفجار الفتن ضد الحكم الأموي .

كذلك يجب أن نضع في الاعتبار أن بيعة كهذه انتزعت بالقوة والضغط، لم تكن أكثر من اجراء سطحي ومؤقت .ويبدو أن معاوية كان أول العارفين بهذه الحقيقة، وليس أدل على ذلك وصيته الشهيرة[*] التي تركها لابنه يزيد، والتي كان يصور فيها همومه وهواجسه من أبناء الصحابة في الحجاز وخاصة الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير .وكلاهما بالفعل شخصية قيادية بارزة وله رصيد من التقدير والإعجاب، فضلا عن الطموح الكبير في منافسة يزيد[33].

وعلى أية حال نستطيع القول بأنه بولاية معاوية لابنه يزيد العهد .ظهر نظام التوريث في الدولة العربية الإسلامية .ليس في العصر الأموي فحسب، بل وعلى ذلك سار العباسيون، فحرموا المسلمين من الحق الطبيعي في الحكم ألا وهو نظام الشورى الذي كان معهودا في العصر الراشدي، بل اشتطوا في ذلك حتى أصبحوا يولون عهدهم اثنين وثلاثة، فأصبح الخليفة في عهد الأمويين يعين ولي عهده، ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته، كما كانت تؤخذ البيعة في الأمصار الإسلامية بحضور الوالي نيابة عن الخليفة . وهذه الطريقة قد جمعت في نفسها – كما يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن نقلا عن سيد أمير علي – "جمعت كلا من النظام الديمقراطي ونظام الحكم المطلق في آن واحد مع تجردها من مزايا كل منهما ؛ إذ كانت البيعة تتم بأية طريقة، سواء أكانت بالوعيد أو الوعود الخلابة، يصبح الانتخاب شرعيا على أي حال" [34].

وما كاد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان يتولى الخلافة بعد وفاة والده سنة 60هـ /680م، حتى انفجرت حركات المعارضة ضد النظام الأموي، وكان الحسين بن علي أول الخارجين على يزيد، حيث كتب أهل الكوفة إلى الحسين يطلبون إليه الخروج إلى العراق لمبايعته، واستمع إلى كلامهم، وانتهى الأمر بقتله في كربلاء في العاشر من محرم سنة61هـ /681م[35]. والتي أذكت نار التشيع وأصبح العداء بين الأمويين والعلويين شديدا .وأعقب ذلك خروج عبدالله بن الزبير على حكم بني أمية في مكة وبويع في الحجاز، وما تلا ذلك من نهب المدينة المنورة، التي كره أهلها حكم بني أمية فأرسل اليهم يزيد جيشا حاصرها من جهة الحرة، واستباحها ثلاثة أيام[36]. ثم تم محاصرة ابن الزبير من قبل الجيش الأموي في مكة بقيادة الحصين بن نمير السكوني قائد يزيد، وفي أثناء الحصار وردت أنباء موت الخليفة الأموي يزيد، وخلفه ابنه معاوية الثاني، والذي لم تدم مدة خلافته أكثر من أربعين يوما، حيث تنازل عن الخلافة، وترك الأمر من بعده شورى للناس فقال: "فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم"[37] ثم مات بعد أيام.

إلا أن النزاع سرعان ما احتدم على السلطة بين عرب الشام، فكما يرى بيضون أن غياب معاوية الثاني خلف أزمة خطيرة في النظام الأموي، كان المتضرر الأكبر من نتائجها البيت السفياني المؤسس لهذه الخلافة، فغاب بدوره عن الواجهة فافسح المجال إلى بيت آخر

من الأسرة الأموية لاستكمال النظام الوراثي، دون أن يطرأ تعديل ما على نهج الدولة العام أو على سياستها القبلية أو الاقتصادية[38].

وانتقلت السلطة إلى البيت المرواني، بتولي مروان بن الحكم الخلافة .واتفقوا المجتمعون في مؤتمر الجابية[*] أن يلي مروان الخلافة من بعده الى خالد بن يزيد .إلا انه وقبل وفاته عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز، ونقض بذلك العهد الذي عاهده في مؤتمر الجابية، واستمر تداول السلطة في الأسرة الأموية بشكل وراثي .اذ قام الخليفة عبد الملك بن مروان بولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان، وعهد الخليفة سليمان بن عبد الملك بالخلافة قبل وفاته لعمر بن عبد العزيز، وخلف عمر أبناء عبد الملك كلا من يزيد وهشام وهكذا حتى وصلت السلطة الى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، والذي قدر للخلافة الأموية أن تنتهي في عهده عام 132هـ [39].

الخاتمة:

بعد استعراضنا لموضوع نظام ولاية العهد في الدولة الأموية ما بين السلبية والايجابية نستنتج الآتي:

- أن ولاية العهد من الناحية الفلسفية والنظرية، لها سند شرعي في القرآن والسنة، وفي اللغة أيضا.
- أن طرق الانتخاب السياسي في العصر الراشدي قامت أساسا على نظام الشورى، وحتى طريقة العهد التي انتهجها أبي بكر الصديق في اختيار عمر بن الخطاب، قامت على أساس البيعة على الشورى .
- ان اشكالية انتقال السلطة لبني أمية، ووصول معاوية بن أبي سفيان لسدة الحكم، كانت من أبرز الأسباب والمقدمات التي دفعت معاوية لإقرار نظام ولاية العهد لابنه يزيد، لكي يحافظ على جهود ه المضنية في اقامة الدولة الأموية، في حدود أسرته .فنجده ينظر للأمر وكأنه حق مشروع.
- أن نظام ولاية العهد كنظام وراثي، ظهر لأول مرة في زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، بعد جهود مضنية، فاعتبره الكثير من المؤرخين بدعة في التاريخ الاسلامي،

وأصبحت قضية التوريث في الحكم من أكثر القضايا جدلا بين الباحثين، وكل فريق حاول اثبات وجهة نظره بعديد الدلائل والبراهين التي حاول بها اثباتها.

- أنتج نظام ولاية العهد في العصر الأموي نتائج ايجابية أهمها اجتناب الفتنة، وافتراق الأمة في بعض الأحيان، ونتائج سلبية أهمها الصراع على السلطة والذي لعبت فيه العصبية القبلية دورا بارزا. فقد دفع بني أمية نتيجة لتشجيع العصبية القبلية ثمنا باهضا فيما بعد، إذ ثارت ضدهم كل الشرائح الاجتماعية المهمشة والرافضة من فرق الغلاة من شيعة وخوارج وموالي وعبيد ممن رفع الإسلام والخلفاء الراشدون من قدرهم، وفقدوا هذا الامتياز في عهد الأمويين، حتى أضحت ولاية العهد أحد أسباب انهيار دولة بني أمية.

الهوامش:

(1) ابن منظور، لسان العرب، المجلد التاسع، دار الحديث، القاهرة، 2002م،ص405.

(2) ابن منظور، المصدر نفسه، المجلد السادس، ص494.

(3) خلود بنت سالم باحشوان، نظام ولاية العهد في الدولة الأموية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2014م، ص24.

(4) سورة يوسف، الآية 101.

(5) سورة المائدة، الآية 51.

(6) سورة الاسراء، الآية 34.

(7) سورة المؤمنون، الآية 8.

(8) ابن منظور، مصدر سابق، المجلد الثالث، ص185.

(9) أبي يعلي، مسند أبي يعلي الموصلي، ج5، تح :حسين أسد، دار المأمون، دمشق، 1985م، ص422.

(10) سورة الشورى، الآية 38.

(11) اسحاق رياح، سليمان أبوسويلم، الحضارة العربية الإسلامية في النظم والعلوم والفنون، كنوز المعرفة للنشر، عمان، الأردن، 2008م،ص38.

(12) توماس آرنولد، الخلافة، نقله إلى العربية: حسن ابراهيم حسن وآخرون، القاهرة، 1975م،ص20.

(13) حسن ابراهيم حسن، علي ابراهيم حسن، النظم الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970م،ص38.

(14) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص352.

(15) الطبري، المصدر نفسه، ج3، ص6.

(16) المصدر نفسه، ص28.

(17) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص207.

(18) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح: نبيل عبد الرحمن حيَّاوي، الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص70.

(19) سورة الشورى، الآية 38.

(20) مفتاح الرباصي، تاريخ الحضارة الإسلامية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2013م، ص53.

(*) وصل معاوية بن أبي سفيان الى السلطة في ظروف استثنائية، بعد صراع مع البيت الهاشمي، واندلاع ما يعرف بالفتنة الكبرى فاغتصب معاوية الخلافة بالقوة والغلبة، وغدت الخلافة ملكا كسرويا وغصبا قيصريا . الجاحظ، رسائل الجاحظ (رسالة في معاوية والأمويين)، القاهرة، 1946م، ص16.

(21) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، 1966م،ص104.

(22) ابراهيم بيضون، التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م، ص 157.

(23) بيضون، المرجع نفسه، ص158.

(24) الطبري، مصدر سابق، ج5، ص232 . عبد الشافي محمد عبد اللطيف، العالم الإسلامي في العصر الأموي، مكتبة المتنبي ، السعودية، الدمام، 2002م، ص136.

(25) ابن الأثير، المصدر السابق، ج2، ص252.

(26) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص 170 ؛ ابن الأثير، المصدر السابق،ج3، ص217.

(27) ابن خلدون، المقدمة، دار الشعب للتراث، د.ت، ص 188.

(28) المصدر نفسه، ص187.

(*) لم يكن يزيد بن عبد الملك سياسيا حازما بارعا عارفا ببواطن الأمور فقد مال الى القيسية وأهمل اليمانية، فقويت العصبية في عهده وساعده ذلك على تمزيق الدولة .وأولع باللهو والترف والشراب وقتل الوقت في معاشرة القيان وانشغل بهذه الأمور عن أمور الدولة .وقرب الجواري حتى كانت فيهن من تدخلن في أمور السياسة . راجع :الطبري، مصدر سابق، ج3، ص211 . ابن الأثير، مصدر سابق، ج4، ص156.

(29) عبد الشافي عبد اللطيف، مرجع سابق، ص132-133.

(30) ابن الأثير، مصدر سابق، ج2، ص140.

(31) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص16.

(32) فاروق عمر فوزي، تاريخ الدولة الأموية، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، 2014م، ص238.

(*)أوصى معاوية ابنه يزيد قبل وفاته قائلا: "يا بني إني قد كفيتك الشد والترحال ووطأة لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فإنهم أهلك، وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل، فإن عزل عامل أسهل من أن يشهر عيك مائة الف سيف، وأنظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وغيبتك، فإن رابك من عدو شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فأردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغربت أخلاقهم وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة من قريش : الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقدته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإذا خرج وظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم، أما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله ليس

له همة إلّا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم بك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فإن فعلها وظفرت به فقطعه إربا إربا، واحقن دماء قومك ما استطعت". راجع: الطبري، مصدر سابق، ج3، ص140.

(33) بيضون، مرجع سابق، ص 161.

(34) حسن ابراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص54.

(35) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص170.

(36) ابن الأثير، مصدر سابق، ج4، ص120.

(37) ابن طباطبا، مصدر سابق، ص109.

(38) بيضون، مرجع سابق، ص197.

(*) بعد الفراغ السياسي الذي أعقب تنازل معاوية الثاني عن السلطة، أصبحت الظروف في بلاد الشام غاية في الصعوبة فقد بايع الضحاك بن قيس الفهري ومعه قبائل القيسية عبدالله بن الزبير في الحجاز، لتذمرهم من تفضيل الخلفاء الأمويين لقبائل اليمانية .كما أن إبن الزبير قد أقر الضحاك بن قيس الفهري على ولاية الشام، ولكن في المقابل كان زعماء اليمانية وخاصة حسان بن بحدل الكلبي شيخ قبيلة كلب وأمير جند الأردن روح بن زنباع الجذامي أمير جند فلسطين، وعبيدالله بن زياد والي العراق السابق الهارب، وعمرو بن سعد الأموي (الأشدق) والي الحجاز السابق، والحصين بن نمير السكوني قائد الجيش الأموي العائد من الحجاز قد أيدوا ترشيح مرشح أموي للخلافة، واجتمعوا في الجابية وبعد مداولات قصيرة قرروا بيعة مروان بن الحكم خليفة للمسلمين في ذي القعدة 64هـ /684م . أنظر :فاروق فوزي، تاريخ الدولة الأموية، ص49-50.

(39) حسن ابراهيم حسن، مرجع سابق، ص57.